أنماط التبويب في كتب تاريخ البلاغة العربيّة المعاصرة

تحليلٌ ومراجعة

بقلم الأستاذ الدكتور

عبدالله بن عبدالرحمن بانقيب

أستاذ البلاغة والنقد المشارك

قسم اللغة العربيّة _ الكليّة الجامعيّة بالقنفذة

جامعة أمّ القرى

ملخّص البحث

يدرس هذا البحث أنماط التبويب في كتب تاريخ البلاغة العربيّة المعاصرة. وقد رصد البحث خمسة أنماطٍ لهذا التبويب توزّعت على خمسة مباحث. درس المبحث الأوّل التبويب بحسب أشخاص العلماء، والمبحث الثاني التبويب بحسب البيئات العلميّة، والمبحث الثالث التبويب بحسب التطوّر العلمي، والمبحث الرابع التبويب بحسب الحدث المركزيّ، والمبحث الخامس التبويب بحسب الأصول والامتدادات. عرض البحث هذه الأنماط وحلّلها وراجعها، وانتهى إلى الكشف عن عددٍ من المشكلات وقعت فيها، كما أبان عن عددٍ من المزايا اتّسمت بها بعضها.

مقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فتتّجه الدراسات المعاصرة التي أرّخت للبلاغة العربيّة نحو غايةٍ واحدة، وهي التأريخ لأطوار تلك البلاغة، والوقوف أمام أهمّ المحطّات التي شكّلت ملامحها، وصاغت بناءها.

وعلى الرغم من اتّحاد الغاية في تلك الدراسات لم تلتزم نحو تحقيقها طريقًا واحدًا، فاتّخذت عدّة طرقٍ في تبويب المسار التاريخي للبلاغة العربيّة. وإذا كان التبويب الزماني هو الإطار العامّ الذي يجمع بين كلّ تلك الدراسات التي اضطلعت بعبء التأريخ للبلاغة العربيّة، فإنَّ ذلك لم يمنع من تشعّب صور التبويب داخل هذا الإطار، فجاءت هذه الدراسات متنوّعةً في تبويبها، واتّخذت كلّ دراسةٍ - وفي حين مجموعة دراسات - صورةً من التبويب رأتْ أنّها هي الأجدى في تتبّع معالم البلاغة العربيّة.

واختلاف التبويب ليس اختلافًا ظاهريًّا على مستوى الشكل، بل هو في حقيقته اختلافٌ على مستوى التصوّر المنهجيّ الذي تنطلق منه كلّ دراسة في رصد المسارات التي انتظمت فيها البلاغة العربيّة. فالاختلاف في تصوّر طبيعة هذه المسارات وتحديدها بين تلك الدراسات هو الذي أدّى إلى اختلافها في نمط التبويب.

واقتضى البحث أنْ يجيء في خمسة مباحث مسبوقة بمقدمة، ومتلوّة بخاتمة. تبيّن المقدّمة أهميّة البحث، وأقسامه، والنهج المتّبع فيه. واختصّ المبحث الأوّل بدراسة تبويب تاريخ البلاغة بحسب أشخاص العلماء، والمبحث الثاني بدراسة التبويب بحسب البيئات العلميّة، والمبحث الثالث بدراسة التبويب بحسب التطوّر العلمي، والمبحث الرابع بدراسة التبويب بحسب الحدث المركزيّ، والمبحث الخامس بدراسة التبويب بحسب الأصول والامتدادات. وأما الخاتمة فأبرزت أهمَّ ما توصّل إليه البحث من نتائج.

وممّا يجدر التنبيه إليه أنَّ سيطرة نمطٍ أو صورةٍ من صور التبويب لا يعني انفرادها دائمًا بالكتاب، بل يمكن أنْ نجد في الكتاب الواحد أكثر من صورة، ولكنْ تظلّ هناك صورةٌ مهيمنةٌ على بنية الكتاب، وتبقى الصور الأخرى تنويعًا فرعيًّا لا يغيّر من طبيعة هذه الهيمنة، وتحكّمها في مجرى الكتاب.

وانتهج البحث نهجًا يقوم بدراسة كتب تاريخ البلاغة بحسب نمط التبويب الذي سار عليه كلّ كتابٍ أو مجموعة كتب. يعرض في البدء التبويب، ثمّ يحلّله، ويراجعه.

وبالله التوفيق.

المبحث الأوّل

التبويب بحسب أشخاص العلماء

يعدّ كتاب (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها لأحمد مصطفى المراغي) وكتاب (في تاريخ البلاغة العربيّة للدكتور عبدالعزيز عتيق) الممثّلان لكتب تاريخ البلاغة العربيّة التي ارتكزت في تبويبها على أشخاص العلماء الذين أسهموا في تطوّر علم البلاغة عند العرب. فالأساس الذي حكم التبويب في هذين الكتابين هو التراتب الزمني لأولئك لعلماء الذين كان لهم دور في مسيرة ذلك التطوّر. ونعرض فيما يأتي تبويب الكتابين.

١ – كتاب : تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها لأحمد مصطفى المراغي[(١)].

مصادر الكتاب

مقدّمة الكتاب

نشأة علوم البلاغة – أطوار التأليف فيها

الطور الأوّل: من عصر سيبويه إلى عصر عبدالقاهر

الطور الثاني: عصر عبدالقاهر والزمخشري وابن الأثير

الطور الثالث: السكّاكي والعضد والطيبي والخطيب وبدر الدين بن مالك

الطور الرابع: الشروح والحواشي

الطور الخامس: التأليف في العصر الحاضر

واضع علمي المعاني والبيان سيبويه

التعريف بعلماء البلاغة بحسب ترتيبهم الزمني

أبو بشر عمرو سيبويه

---

(١) أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ط١، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م، ص٢٢٢.

مناظرة بين سيبويه والكسائي _ أبو عبيدة معمر بن مثنى _ موازنة بين أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري _ أبو عثمان الجاحظ _ محمّد بن يزيد المبرّد _ عبدالله بن المعتز _ قدامة بن جعفر الكاتب _ أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني _ أبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي _ الحسن بن بشر الآمدي _ محمّد بن عمران المرزباني _ أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري _ أبو منصور الثعالبي _ ابن رشيق القيرواني _ ابن سنان الخفاجي الأمير _ عبدالقاهر الجرجاني _ محمود بن عمر الزمخشري _ مجد الدين بن منقذ الشيرازي _ أبو عبدالله محمّد بن عمر فخر الدين الرازي _ أبو يعقوب السكّاكي _ نقد تقسيم السكّاكي فنون البلاغة _ عبد اللطيف البغدادي _ أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير _ عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني _ عبدالوهاب الزنجاني _ ابن أبي الإصبع _ عزالدين بن أبي الحديد _ أبو الحسن حازم الأنصاري القرطبي _ بدر الدين بن مالك _ قطب الدين الشيرازي _ محمّد بن النحوية _ محمّد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني _ شرف الدين الطيبي _ محمّد بن مظفّر الخطيبي الخلخالي _ يحيى بن حمزة العلوي _ صفي الدين الحلي _ عبدالرحمن عضدالدين _ بهاء الدين السبكي _ محمّد بن يوسف ناظر الجيش _ ابن جابر الأندلسي _ محمّد البابرتي _ محمّد بن يوسف الكرماني _ جمال دالديت التيزيتي _ جمال الدين الأقصرائي _ السيّد عبدالله العجمي _ محمّد بن خضر العيزري _ السيّد الشريف الجرجاني _ عزالدين بن جماعة _ حيدرة الشيرازي _ محمّد بن حمزة الفناري _ تقي الدين بن حجّة الحموي _ ابن المقرئ _ محمّد بن السيّد الشريف _ محمّد الطائي البساطي _ علاء الدين البسطامي _ المولى خسرو _ أبو الليث السمر قندي _ حسن جلبي _ المولى اللطفي _ حميد الدين _ جلال

الدين السيوطي _ أسعد بن ناجي _ عائشة الباعونية _ زكريا الأنصاري _ ابن كمال باشا _ عصام الدين _ عبدالرحمن الأخضري _ محيي الدين جلبي _ عبدالرحيم العبّاسي _ طاشكبرى زاده_ ابن قاسم العبادي _ ياسين العليمي الحمّصي _ عبدالحكيم السيالكوتي _ البسنوي _ أحمد الخفاجي _ ابن يعقوب المغربي _ عبدالغني النابلسي _ محمّد الحفني _ أحمد بن عبدالفتّاح الملوي _ أحمد الدمنهوري _ أحمد السجاعي _ أحمد الدردير _ أبو العرفان الصبّان _ مصطفى الباني _ محمّد بن عرفة الدسوقي _ محمّد الأمير _ حسن العطّار _ إبراهيم الباجوري _ محمّد الخضري _ محمّد الأنباري _ محمّد البسيوني _ حفني ناصف _ أحمد الحملاوي _ أحمد بن مصطفى المراغي.

٢ – كتاب : في تاريخ البلاغة العربيّة للدكتور عبدالعزيز عتيق[١].

نشأة البلاغة العربيّة

في العصر الجاهلي

في عصر صدر الإسلام

طبقة الكتّاب والبلاغة

المتكلّمون والبلاغة

دور اللغويين والنحاة والرواة في البلاغة

الشعراء وأثرهم في البلاغة

عبدالله بن المعتزّ والبديع

(١) د.عبدالعزيز عتيق، في تاريخ البلاغة العربيّة، بيروت، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، ص٣٢٧.

البلاغة عند الجاحظ

البلاغة في القرن الرابع الهجري

قدامة بن جعفر

الحسن بن بشر الآمدي

علي بن عيسى الرمّاني

القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني

أبو هلال العسكري

البلاغة في القرنين الخامس والسادس

القاضي الباقلّاني

ابن رشيق القيرواني

ابن سنان الخفاجي

عبدالقاهر الجرجاني

محمود بن عمر الزمخشري

البلاغة في القرن السابع

دور بدء الجمود في البلاغة

فخر الدين الرازي

أبو يعقوب يوسف السكّاكي

ضياء الدين الأثير

بعض رجال البديع:

التيفاشي المغربي

زكي الدين بن أبي الإصبع

علي بن عيسى الأربلي

بدر الدين بن مالك

البلاغة في القرن الثامن

الخطيب القزويني

يحيى بن حمزة

ابن قيّم الجوزيّة

البديعيّات

يستهلّ كتاب المراغي الحديث عن تاريخ البلاغة بالحديث عن مراحل تطوّر البلاغة العربيّة، وجعلها في خمسة أطوار بدأت بسيبويه (ت١٨٠هـ) وانتهت بجهود البلاغيين المعاصرين لزمن المراغي. وهذا يعني أنَّ التبويب الذي حكم الاستهلال هو التبويب بحسب التطوّر العلميّ. ولكنّ هذا التبويب لم يكن سوى مقدّمةٍ عامّةٍ يفتتح بها المراغي كتابه لم تتجاوز مساحتها ثلاثًا وأربعين صفحةً؛ أي ما يشكّل أقلّ من ربع الكتاب الذي تجاوزت صفحاته مئتين وعشرين صفحة. بعد هذا الحديث الموجز عن أطوار البلاغة مضى المراغي يؤرّخ للبلاغة العربيّة بحسب علمائها، وظلّ هذا الحديث هو المسيطر على جلّ الكتاب كما يتّضح في عرض التبويب، ولعلّ سيطرة هذه الصورة من التبويب القائمة على أشخاص العلماء هي التي دعت المراغي إلى أنْ ينصّ في عنوان كتابه على عبارة: (والتعريف برجالها).

وأمّا كتاب د. عبدالعزيز عتيق فإنَّه بعد حديثه عن نشأة البلاغة في عصرَي الجاهليّة وصدر الإسلام يفتتح الحديث عن تاريخ البلاغة عقب هذين العصرين بالحديث عن البيئات العلميّة التي أسهمت في تاريخ البلاغة، وهي بيئة الكتّاب، والمتكلّمين، واللغويين والنحاة والرواة، والشعراء. وفي حقيقة الأمر لم يكن هذا الحديث عن تلك البيئات سوى استهلالٍ لم يستمرّ عليه الكتاب في تبويبه، بل انتهج نهجًا آخر من التبويب، وهو

التبويب بحسب أشخاص العلماء. وشغلت هذه الصورة معظم الكتاب.

إنَّ هذا التبويب بحسب أشخاص العلماء الذي انتهجه المراغي ود. عتيق ليس من أمرٍ ينتظمه سوى السرد التاريخي للعلماء حسب زمان وفياتهم. وهذا النوع من التبويب الذي يعتمد على مجرّد التراتب الزمني لا يكشف مراحل التطوّر بوضوح كافٍ؛ لأنَّه لا يحقّب المراحل بصورةٍ تظهر معها مراحل النشوء والصعود والهبوط. وإذا ما أراد القارئ أنْ يكشف ذلك فعليه أنْ يصبر على قراءة الكتاب، وسبره من الداخل حتى يقف على مسيرة تطوّر البلاغة العربيّة. وهذا يعني أنَّ هذا النوع من التبويب يعيق بروز التطوّر، ونجاحُ أيّ تبويبٍ يكمن في أنْ يكون عاملًا مساعدًا في الكشف عن الغاية التي نصب لها الكتاب ذاته. فالهدف من التبويب هو تنظيم سير الكتاب نحو غايته؛ ليكون إضاءةً تنير الطريق نحو تلك الغاية.

والناظر في التبويب الذي اتّخذه كتابا المراغي ود. عتيق يجد أنَّه يسير في مسارٍ رتيبٍ لا يحكمه سوى مجيء العالم بعد الآخر في الزمن، ولا يأخذ في الاعتبار اختلاف هؤلاء العلماء في المنطلقات والتوجّهات العلميّة. فمجيء الآمدي (ت٣٧٠ه) – على سبيل المثال - بعد السيرافي (ت٣٦٨هـ) عند المراغي، وبعد قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) عند د. عتيق لا يحكمه تسلسلٌ منطقيٌّ نابعٌ من طبيعة التصوّر العلميّ لهؤلاء العلماء، وكلّ ما في الأمر أنَّ الآمديّ جاء زمنيًّا بعد السيرافي وقدامة. ولا شكّ في أنَّ هذا يفوّت فرصة الوقوف على حركة نموّ البلاغة العربيّة في جهود أولئك العلماء.

ثمَّ إنَّ سرد العلماء في كتابي المراغي ود. عتيق لا يقف بنا على أسباب اختيار علماء، وتغييب آخرين. ففي حين يحضر السيرافي والمرزباني (ت٣٧٨هـ) والرمّاني (ت٣٨٦هـ) عند المراغي، ويحضر قدامة والرمّاني عند د. عتيق، فلا نعلم – على سبيل المثال - سببًا لغياب الخطّابي معاصر الرمّاني في كلا الكتابين. وقد حفلت رسالة الخطّابي (ت٣٨٨هـ) (بيان إعجاز القرآن) بحديثٍ بالغ الأهميّة عن ضرورة الخروج من الإبهام المعرفيّ في البلاغة العربيّة إلى الوضوح المعرفيّ القائم على التحليل الموضوعيّ الذي يبيّن الأسباب، ويكشف عن الخصائص والمزايا، فيما أسماه الخطّابي بالبحث عن باطن العلّة[1]، إلى غير ذلك من القضايا المهمّة التي جاءت في رسالته.

وقد أراد المراغي لكتابه أنْ يكون تاريخًا ممتدًّا لعلماء البلاغة حتّى عصره، فحوى الكتاب عددًا منهم كالمراغي نفسه. ولكنّ هذا التأريخ أغفل عددًا آخر من علماء العصر الذين كان لهم دورٌ واضحٌ في الدرس البلاغي المعاصر، كالشيخ محمّد عبده (١٨٤٩م - ١٩٠٥م) الذي يُسْنَد إليه التنبيه إلى ضرورة العودة إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) بعد أنْ طغت كتب التلخيص والشروح. وكذلك الأستاذ أمين الخولي (١٨٩٥م – ١٩٦٦م) الذي خصّص جزءًا واضحًا من نشاطه العلميّ للبحث البلاغيّ، إلى غير ذلك من الأسماء كأحمد الهاشمي (١٨٧٨م - ١٩٤٣م)، وسليمان نوار (١٨٨٦م - ١٩٦٩م)،

(١) ينظر: أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابي، بيان إعجاز القرآن "ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، حقّقها وعلّق عليها: محمّد خلف الله – د.محمّد زغلول سلام، ط٤، القاهرة، دار المعارف، ص٢٥.

وعبدالمتعال الصعيديّ (١٨٩٤م – ١٩٦٦م)، وعلي الجارم (١٨٨١م – ١٩٤١م)، ومصطفى أمين (١٩١٤م – ١٩٩٧م).

وما دام المعوّل عليه في التبويب هو الأشخاص فلا غرابة أنْ يؤدّي ذلك إلى ظهور معالم، وتوارِي أخرى، دون أنْ يكون ذلك معزوًّا إلى سببٍ واضح. ففي حين تظهر (البديعيّات) في التبويب عند د. عتيق، تغيب (شروح التلخيص وحواشيه)، وليست مرحلة الشروح بأقلّ أهميّة من (البديعيّات) إنْ لم تفقها، ومع ذلك لا تحظى بنصيبٍ يبرزها في هذا التبويب، ويظلّ الحديث عنها منطويًا داخل الحديث عن الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ)، وهو ما لا يتبيّنه القارئ من التبويب، ولكنْ من القراءة الداخليّة للكتاب. في حينّ أنّ الإشارة إلى الإسهام البديعي تكرّر ورودها في التبويب، فإذا كانت الإشارة إلى رجال البديع من الأهميّة بمكان في القرن السابع الهجريّ لاستقلال البديع علمًا ثالثًا من علوم البلاغة في هذه المرحلة، فإنّ ذلك لم يكن كافيًا حتى يطالعنا الحديث عن (البديعيّات) خلال القرن الثامن الهجريّ في آخر التبويب. وهو ما يدلّل على افتقار هذا النوع من التبويب إلى خطّةٍ منطقيّةٍ واضحةٍ في بيان معالم تاريخ البلاغة العربيّة.

لقد آل التبويب المعتمد على أشخاص العلماء بكتابي المراغي ود. عتيق إلى أنْ يكونا كتابين في تاريخ الرجال أكثر منه في تاريخ العلم؛ لأنَّ تاريخ العلم هو الذي يقف بقارئه على ملامح التطوّر وحركته، ويجلّي له مراحل الصعود والهبوط في مسيرة العلم، وهذا ما افتقر إليه كتابا المراغي ود. عتيق، إذ سيطر سرْد الأسماء ومتابعتها في الكتابين، فجاءا أشبه بكتب التراجم والأعلام منها بكتب تأريخ العلم. ولعلّ مجيء الكتابين

وخاصّة كتاب المراغي في صدارة هذا النوع من التأليف الذي يؤرّخ للبلاغة سببٌ في اتّخاذ هذ النهج، وذلك على العكس من التأريخ للأدب العربي الذي سبقت محاولاتُه كتابَ المراغي بأمدٍ ليس بالقصير.

المبحث الثاني

التبويب بحسب البيئات العلميّة

المراد بالتبويب بحسب البيئات العلميّة هو ذلك التبويب الذي ارتكز في تأريخه للبلاغة العربيّة على البيئات العلميّة التي أسهمت في تشكيل معالم هذه البلاغة كبيئة اللغويين والأدباء والنقّاد فضلًا عن بيئة أصحاب دراسات الإعجاز القرآني. فالجهود في هذا التبويب لا تُعْرَضُ مفردةً بل تُسْلَكُ ضمن مجموعةٍ أو بيئةٍ علميّة، فقيمة الجهد الفردي تبرز في إطار الإسهام الجماعي للبيئة التي نتج عنها.

ويعدّ كتاب (البيان العربي للدكتور بدوي طبانة)، وكتاب (الموجز في تاريخ البلاغة للدكتور مازن المبارك)، وكتاب (المختصر في تاريخ البلاغة للدكتور عبدالقادر حسين) أمثلةً لهذا النوع من التبويب، وسنعرض فيما يأتي تبويب كلّ كتاب، وسنبدأ بعرض كتابي الدكتور المبارك والدكتور عبدالقادر حسين، وسنؤخّر عرْض كتاب الدكتور طبانة على الرغم من تقدّمه الزمني، لما بين كتابي الدكتور المبارك والدكتور عبدالقادر حسين من تقاربٍ واضح في التبويب.

١ – كتاب : الموجز في تاريخ البلاغة للدكتور مازن المبارك[(١)].

مقدّمة الكتاب

تمهيد

الفصل الأول: البلاغة عند العرب

الفصل الثاني: ظواهر بلاغيّة في العصر الجاهلي

الفصل الثالث: البلاغة في ظلال القرآن

(١) د.مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ط١، دمشق ، دار الفكر، ص١٣٠.

المضمون البلاغي في المؤلّفات القرآنيّة
الفصل الرابع: البلاغة في كتب اللغة والأدب
كتاب سيبويه – كتب الجاحظ – كتاب الكامل للمبرّد
الفصل الخامس: البلاغة في كتب النقد
كتاب البديع لابن المعتز – نقد الشعر لقدامة بن جعفر – عيار الشعر والموازنة
والوساطة – كتاب الصناعتين والعمدة وسر الفصاحة
عصر النضج والازدهار
الإمام الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة
الزمخشري
الفصل السادس: نحو الانحراف والجمود
الخاتمة

٢ – كتاب: المختصر في تاريخ البلاغة للدكتور عبدالقادر حسين[1].

مقدّمة
تمهيد
الباب الأوّل: قضيّة الإعجاز القرآني وأثرها في البلاغة
الباب الثاني: أثر علماء اللغة والنحو في البلاغة ويشمل:
سيبويه
المبرّد
ابن جني
الباب الثالث: أثر الأدباء في البلاغة ويشمل:
الجاحظ
ابن المعتزّ
أبو هلال العسكري
ابن سنان الخفاجي

(١) د.عبدالقادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ط١، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، ص٣٣٣.

ابن رشيق

الباب الرابع: أثر النقّاد في البلاغة ويشمل:

قدامة بن جعفر

الآمدي

القاضي الجرجاني

الحاتمي

الباب الخامس: البلاغة بعد عبدالقاهر الجرجاني

الفخر الرازي

ابن الأثير

الطوفي البغدادي

شهاب الدين الحلبي

محمّد بن علي الجرجاني

الخطيب القزويني

زكريّا الأنصاري

الحسن المفتي

عبدالمتعال الصعيدي

٣ – كتاب: البيان العربيّ دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيّة عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى للدكتور بدوي طبانة[١].

مقدّمة

تمهيد: البيان العربي

الفصل الأوّل: البيان والإعجاز

البيان والعلوم الإسلامية

المجاز في القرآن

المجاز عند أبي عبيدة وعند البلاغيين

---

(١) د.بدوي طبانة، البيان العربيّ دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيّة عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط٧، جدة، دار المنار للنشر والتوزيع – الرياض، دار الرفاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٤١٥.

بلاغة ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن"
بلاغة الرمّاني في "النكت في إعجاز القرآن"
وجوه الإعجاز في كتاب الباقلّاني "إعجاز القرآن"
تشبيهات القرآن في كتاب "الجمان" لابن ناقيا
محاسن البلاغة في "بدائع القرآن" لابن أبي الإصبع
الفصل الثاني: البيان والأدب
البلاغة في صحيفة بشر بن المعتمر
الجاحظ والبيان العربي
- فكرة البيان بعد الجاحظ:
الكامل للمبرّد ورسالته في البلاغة
وجوه البيان كتاب "البرهان" لابن وهب
قواعد الشعر عند ثعلب
ابن المعتزّ والبديع
- التفكير البياني في القرن الرابع:
عيار الشعر لابن طباطبا
البديع والنقد: نقد الشعر لقدامة بن جعفر
فنون البيان بين مقاييس النقد: في موازنة الآمدي ووساطة القاضي.
الصناعات والفنون: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، والصاحبي لابن فارس
- التفكير البياني في القرن الخامس:
كتاب العمدة لابن رشيق
بلاغة عبدالقاهر في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة
- التفكير البياني في القرن السادس:
كتاب قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي
كتاب البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ
تحرير التحبير لابن أبي الإصبع
أصحاب البديعيّات
- التفكير البياني في القرن السابع:

كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي
ابن الأثير وكتابه "المثل السائر"
"التبيان في علم البيان المطّلع على إعجاز القرآن" لابن الزملكاني
حازم القرطاجني في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"
الفصل الثالث: البيان البلاغي
السكّاكي وكتابه "مفتاح العلوم"
كتاب "الطراز" ليحيى بن حمزة العلوي
"البلاغة الواضحة" نموذج للكتاب البلاغي التعليمي
آثار بلاغيّة لمؤلّف هذا الكتاب
الفصل الرابع: فكرة البيان عند المعاصرين
سلامة موسى وكتابه "البلاغة العصريّة واللغة العربيّة"
من الدعوات البنّاءة:
الزيّات في "دفاع عن البلاغة"
أحمد الشايب وكتابه "الأسلوب"
أمين الخولي و"فنّ القول"
خاتمة

أوّل ما يُلْحَظُ هو تصدّر بيئة دراسات الإعجاز القرآني في الدراسات الثلاث، فدائمًا يبدأ تبويب البيئات بها، وهذا يشير إلى أهميّة هذه البيئة، وأنَّ ولادة البلاغة العربيّة جرت فيها، حين رام العلماء الوقوف على أسباب إعجاز القرآن الكريم.

ويتّفق كتاب د. مازن المبارك وكتاب د. عبدالقادر حسين على عدد البيئات تقريبا، فترد عندهما بيئة الدراسات الإعجازية واللغويّة والأدبيّة والنقديّة والبلاغيّة. وأمّا كتاب د. طبانة فتتقلّص عنده البيئات إلى ثلاثٍ هي: دراسات الإعجاز، والبيئة الأدبيّة أو ما أسماه (البيان والأدب)، والبيئة البلاغيّة أو ما أسماه (البيان البلاغي).

واتّفاق الدراسات في التبويب بحسب البيئة العلميّة لا يعني اتّفاقها دائمًا على نفس الجهود العلميّة داخل هذه البيئات، كأنْ نجد ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) يرد بوصفه أحد ممثّلي بيئة اللغويين عند د.

عبدالقادر حسين، لكنّه لا يرد عند د. مازن المبارك إطلاقًا، ويتّفقان في إيراد سيبويه والمبرّد (ت٢٨٥هـ) في هذه البيئة.

ويطال الاختلاف توزيع العلماء داخل هذه البيئات، فنجد كتاب البديع لابن المعتزّ (ت٢٩٦هـ)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، وسرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجيّ (ت٤٦٦هـ) ترد في بيئة النقّاد عند د. مازن المبارك، في حين أنَّ الكتب الثلاثة ترد عند د. عبدالقادر حسين في بيئة الأدباء.

كما نجد كتابي عبدالقاهر لا يظهران في تبويب كتاب د. عبدالقادر حسين لانزوائهما داخل حديثه عن دراسات الإعجاز القرآني. والأمر يختلف عند د. طبانة ود. المبارك، إذ تظهر الإشارة إلى جهود عبدالقاهر في تبويبهما، ولكنَّهما لا يذكرانه ضمن بيئة دراسات الإعجاز القرآني كما عند د. عبدالقادر حسين، إذْ يرد عند د. طبانة ضمن بيئة الأدباء، ويرد عند د. المبارك علامةً بارزةً لنضج البحث البلاغي واكتمال استقلاله عن العلوم الأخرى.

وتأخذ بيئة الأدباء في كتاب د. طبانة أمدًا واسعًا، فنجد أنَّ هذه البيئة تضمّ عنده عددًا هائلًا من الجهود العلميّة. وما يسترعي الوقوف هو أنَّ عددًا من هذه الجهود ككتابي عبدالقاهر الجرجاني، وبديع ابن منقذ (ت٥٨٤هـ)، وتحرير ابن الإصبع (ت٦٥٤هـ) – وكلّها على سبيل التمثيل - ترد ضمن هذه البيئة، وكان من المتوقّع أنْ ترد عنده في بيئة البلاغيين أو ما أسماه (البيان البلاغي)، ولكنّنا في حقيقة الأمر نجده يقصر البيان البلاغي على السكّاكي (ت٦٢٦هـ) ومن تلاه. وكدنا أنْ نعزو سبب ذلك إلى أنَّ جهود عبدالقاهر ومَنْ ذكرنا هي ممّا يدرج ضمن الاتّجاه للتذوق الأدبي للبلاغة العربيّة الذي يقابل الاتّجاه الكلامي التقعيدي، فيكون المقصود ببيئة الأدباء عند د. طبانة هو ما اتّجه في دراسة البلاغة اتّجاهًا أدبيًّا، ويكون مقصوده بالبيان البلاغي هو ما اتّجه اتجاهًا كلاميًّا تقعيديًّا. ولكنّ الذي عدل عن أنْ يكون ذلك هو السبب أنّنا

وجدنا كتاب (نهاية الإيجاز) للفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) يرد ضمن بيئة الأدباء، ومعلومٌ أنَّ هذا الكتاب هو فاتحة الطريق إلى الاتّجاه الكلامي في البلاغة العربيّة، ووجدنا كتاب الطراز للعلوي (٧٤٥هـ) يجيء ضمن كتب (البيان البلاغي) وهو أحد كتب الاتّجاه الأدبي في البلاغة العربيّة.

ويظهر الاختلاف أيضًا بين هذه الدراسات في حضور بعض الكتب، وغياب بعضها الآخر. فنلقى – على سبيل المثال - عيار الشعر لابن طباطبا (ت٣٢٢هـ) حاضرًا عند د. طبانة، ود. المبارك، لكنّه يغيب عند د. عبدالقادر حسين. وفي المقابل نجد كتاب حلية المحاضرة للحاتمي (ت٣٨٨هـ) يحضر عند د. عبدالقادر حسين، ويغيب عند د. طبانة، ود. المبارك. كما نجد منهاج البلغاء لحازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) حاضرًا عند د. بدوي طبانة، وغائبًا عن كتابي د. المبارك، ود. عبدالقادر حسين.

وهذا يؤدّي إلى أنَّ التبويب بحسب البيئة العلميّة وإنْ كان يتّفق في الأسس العامّة، لكنّه يختلف في الأسس الداخليّة، إذْ تخضع هذه الأسس لرؤية الدارس ومنطلقاته، وهو ما يؤكّد التلازم بين التبويب واقتناع صاحبه، وتصوّره العلمي.

والحرص على التوزيع بحسب البيئات العلميّة خاصّةً في كتابي د. المبارك، ود. عبدالقادر حسين على ما فيه من ميزة ضمّ الجهود العلميّة في مجموعاتٍ، لكنّه في حقيقة الأمر لا يجلّي مراحل التطوّر التي مرّت بها البلاغة العربيّة، إذْ تنصبُّ الغاية على انتظام المجموعات أكثر من الكشف عن تلك المراحل، فضلًا عمّا يوقعه من مزلق الانتقال من التأريخ لعلم البلاغة، إلى التأريخ لعدّة علوم، فيشتبك التأريخان ممّا يصعّب من إنجاز المهمّة الأساسيّة وهي التأريخ للبلاغة العربيّة.

وممّا يدلّ على ذلك أنّ الحديث عن بيئة البلاغيين يختلف في حدوده ومداه بين الدراسات الثلاث، فيمتدّ التأريخ للبلاغيين إلى

المعاصرين عند د. طبانة ود. عبدالقادر حسين، لكنّه يقف عند الخطيب القزويني في كتاب د. المبارك. ويتفاوت التأريخ للمعاصرين بين د. طبانة ود. عبدالقادر حسين، فيشمل كتاب د. طبانة عددًا منهم، وهم: سلامة موسى (١٨٨٧م – ١٩٥٨م)، والزيّات (١٨٨٥م – ١٩٦٨م)، وأحمد الشايب (١٨٩٦م – ١٩٧٦م)، وأمين الخولي، بينما يقتصر كتاب د. عبدالقادر حسين على عبدالمتعال الصعيدي.

ومع ما يوحي به هذا النوع من التبويب من اختلافٍ عن التبويب السابق - بحسب أشخاص العلماء - فإنَّه في حقيقة الامر لا يعدو أنْ يكون اختلافًا ظاهريًّا لا يمسّ الجوهر كثيرًا. وإذا كان التبويب السابق يعتمد على إفراد الجهود العلميّة، فإنَّ التبويب بحسب البيئات العلميّة لا يغاير ذلك إلّا في جمع هذه الجهود في مجموعات، وإذا كان التبويب السابق أشبه بكتب التراجم والأعلام كما أسلفنا، فإنّ هذا التبويب لا يفارقه إلّا في الدرجة لا النوع، بحيث نكون قد انتقلنا من مشابهة كتب تراجم الأعلام المنفردة إلى مشابهة كتب تراجم الطبقات.

المبحث الثالث

التبويب بحسب التطوّر العلمي

المقصود بالتبويب بحسب التطوّر العلمي هو ذلك التبويب الذي يرتكز في تقسيمه على المراحل التي مرّت بها البلاغة العربيّة منذ النشأة إلى الاكتمال والنضج، وما مرّت به من مراحل تلت مرحلة الاكتمال.

ويعدّ كتاب (البلاغة تطوّر وتاريخ للدكتور شوقي ضيف)، وكتاب (البلاغة العربيّة: تاريخها. مصادرها. مناهجها للدكتور علي عشري زايد) أبرز ما يمثّل هذا النوع من التبويب. ولعلّ في ذِكْرِ الدكتور شوقي ضيف لكلمة (تطوّر) في عنوان كتابه ما يؤكّد رغبته في أنْ يكون كتابه واقعًا هذا الموقع من التأليف. ونعرض فيما يأتي تبويب الكتابين.

١ ــ البلاغة تطوّر وتاريخ للدكتور شوقي ضيف[١].

مقدّمة

الفصل الأوّل: النشأة

١ ــ في العصرين الجاهلي والإسلامي

٢ ــ في العصر العبّاسي الأوّل

٣ ــ المتكلّمون ــ المعتزلة

٤ ــ الجاحظ

٥ ــ لغويون مختلفون

الفصل الثاني: دراسات منهجيّة

١ ــ التطوّر من تسجيل الملاحظات إلى وضع الدراسات: كتاب البديع لابن المعتزّ

(١) شوقي ضيف، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط١٥، القاهرة، دار المعارف، ص٢٧٩.

٢ – دراسات لبعض المتفلسفة: كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، كتاب نقد النثر أو كتاب البرهان في وجوه البيان.
٣ – دراسات لبعض المتكلّمين: النكت في إعجاز القرآن للرمّاني، إعجاز القرآن للباقلّاني، إعجاز القرآن لعبدالجبّار
٤ – دراسات نقديّة على اسس بلاغيّة: عيار الشعر لابن طباطبا، الموازنة بين أبي تمّام والبحتري للآمدي، الوساطة بين المتنبّي وخصومه لعليّ بن عبدالعزيز الجرجاني
٥ – دراسات لبعض المتأدّبين: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، كتاب سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي
الفصل الثالث: ازدهر الدراسات البلاغيّة
١ – وضع عبدالقاهر لنظريّة المعاني
٢ – وضع عبدالقاهر لنظريّة البيان
٣ – تطبيقات الزمخشري في الكشّاف
٤ – إضافات الزمخشري في المعاني والبيان
٥ – الزمخشري وألوان البديع
الفصل الرابع: التعقيد والجمود
١ – تحوّل البلاغة إلى قواعد جافّة: كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز
٢ – القسم الثالث من كتاب المفتاح للسكّاكي
٣ – دراسات جانبيّة: كتاب المثل السائر لضياء الدين بن الأثير
٤ – تلخيص الخطيب القزويني وشروحه
٥ – البديع والبديعيّات
خاتمة

٢ - كتاب البلاغة العربيّة: تاريخها. مصادرها. مناهجها للدكتور علي عشري زايد[١].

الافتتاحيّة

القسم الأوّل: قضايا تاريخيّة : مراحل تطوّر البلاغة

توطئة

المرحلة الأولى (النشأة)

العلوم التي أثّرت في نشأة البلاغة

أولًا: العلوم القرآنيّة

ثانيًا: العلوم الأدبيّة

ثالثًا: العلوم اللغويّة

"مجاز القرآن" لأبي عبيدة وسمات المرحلة

السمات العامّة للتأليف في هذه المرحلة

أوّلًا: عدم التبويب

ثانيًا: اضطراب مدلول المصطلحات

ثالثًا: امتزاج قضايا البلاغة بقضايا العلوم الأخرى

رابعًا: عدم تميّز علوم البلاغة الثلاثة

المرحلة الثانية (التكامل المشترك)

العلوم القرآنيّة وبروز دور علم الكلام : كتاب "النكت في إعجاز القرآن" للرمّاني

دور العلوم اللغويّة: "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة

دور العلوم الأدبيّة: "نقد الشعر" لقدامة – "الموازنة" للآمدي – "الوساطة" للقاضي الجرجاني

ملاحظات عامّة على المرحلة

المرحلة الثالثة (الاستقرار)

بداية الاستقرار وكتاب "البديع" لابن المعتزّ

عبدالقاهر وازدهار البحث البلاغي

---

(١) د.علي عشري زايد، البلاغة العربيّة تاريخها مصادرها مناهجها، مكتبة الشباب، ص١٩٨٢، ص٢٢٩.

عبدالقاهر ونظريّة النظم وعلم المعاني
عبدالقاهر وعلم البيان
عبدالقاهر وعلم البديع
السكّاكي وتجمّد البحث البلاغي
القسم الثاني: قضايا فنّيّة: مناهج التأليف البلاغي
توطئة
أوّلًا: المنهج التجميعي
الصورة الأولى: تجميع أمثلة فنّ بلاغي في القرآن
الصورة الثانية: الدراسة بالتمثيل
الصورة الثالثة: تجميع الآراء البلاغيّة
ثانيًا: المنهج الانطباعي
بداياته لدى الجاحظ والمبرّد في المرحلة الأولى
تبلوره لدى الآمدي في المرحلة الثانية
ثالثًا: المنهج التحليلي
بداياته لدى الرمّاني والباقلّاني في المرحلة الأولى
تكامله في مؤلّفات عبدالقاهر في المرحلة الثالثة
رابعًا: المنهج التقنيني المنطقي
بداياته لدى قدامة في المرحلة الثانية
تكامله في لدى السكّاكي ومدرسته في المرحلة الثالثة

إنَّ أهمّ ما يمتاز به هذا النوع من التبويب هو أنَّه يقف بنا على مراحل البلاغة العربيّة في نشأتها، وصعودها، وهبوطها، وتلك مزيّةٌ يحرص عليها تأريخ أي علمٍ من العلوم، إذْ تعدّ إحدى الغايات الأساسيّة التي تُرام من هذا النوع من التأليف.

ويجعل د. شوقي ضيف مراحل البلاغة العربية في تبويبه أربع مراحل أو أطوار هي: (النشأة، والدراسات المنهجية، وازدها الدراسات البلاغيّة، والتعقيد والجمود). وأمَّا د. علي عشري زايد فالمراحل في تبويبه ثلاث هي: (النشأة، والتكامل

المشترك، والاستقرار)، ويبدو أنَّ د. علي عشري زايد لم يعتدّ بمرحلة الجمود البلاغيّ فلم يبوّب لها في كتابه عنوانًا رئيسيًّا، فجاءت عنوانًا فرعيًّا في آخر تبويبه للقسم الأوّل من كتابه تحت ما أسماه: (السكّاكي وتجمّد البحث البلاغي).

ومع ما يمتاز به هذا النوع من التبويب، فإنّنا نجد في كتابي د. شوقي ضيف، ود. علي عشري زايد، بعضًا من المشكلات التي انطوى عليها تبويبهما. فالحرص على توزيع البلاغة عبر تاريخها الممتدّ في أطوارٍ محدّدةٍ كان يأتي أحيانًا على حساب إعطاء كلّ جهد ما يستحقّه من تقديرٍ للإسهام الذي قدّمه في مسيرة البلاغة العربيّة. فضمّ الجهود داخل الطور يلغي ما بينها من فروق في حجم الجهد العلميّ المقدّم، فيتساوى على سبيل المثال ما قدّمه ابن المعتزّ في كتابه البديع مع ما قدّمه قدامة (ت٣٣٧هـ)، وابن وهب، والرمّاني (ت٣٨٦هـ)، وابن طباطبا، وأبو هلال العسكري، إذ يأتي الجميع ضمن الطور الثاني الذي دعاه باسم: (دراسات منهجيّة). والأمر ذاته يقال في تبويب د. علي عشري زايد، حيث يتساوى عنده على سبيل المثال ما قدّمه الرمّاني مع ابن قتيبة، وقدامة(ت٢٧٦ه)، والآمدي، فالكلّ يأتي في الطور الثاني الذي أسماه: (التكامل المشترك). وهذا يعني أنَّ طابع وحدة الطور في هذا التبويب جاء على حساب إظهار ما بين الجهود التي ينطوي عليها من تمايز.

ومع حِرْص د. شوقي ضيف ود. علي عشري زايد على التبويب بحسب الأطوار إلّا أنَّ ذلك لم ينتظم لهما بصورةٍ مطّردة، فندّت عن تبويبهما أمورٌ لم تجعل انقياد التبويب يسير في خطٍّ منتظم. من ذلك أنّ الطور الثاني عند كليهما، طور الدراسات المنهجيّة عند د. شوقي ضيف، وطور التكامل المشترك عند د.

علي عشري زايد، لم يكن عند فحصه من الداخل سوى تبويبٍ بحسب البيئة العلميّة. إذ أنَّ الدراسات المنهجيّة عند د. شوقي ضيف هي التي توزّعتها بيئة المتفلسفة، والمتكلّمين، والنقّاد، والأدباء. ومرحلة التكامل المشترك عند د. علي عشري زايد هي نتاج بيئة دراسات إعجاز القرآن، وعلوم اللغة، وعلوم الأدب. وما ذكرناه في المبحث السابق عن المشكلات التي تعترض التقسيم بحسب البيئة العلميّة تكاد تظهر ذاتها هنا. ففي حين يخصص د. شوقي ضيف بيئةً للنقّاد نجد د. علي عشري زايد يجعلها ضمن بيئة الأدباء أو ما أسماه (العلوم الأدبيّة). وحين يظهر عيار الشعر لابن طباطبا والصناعتان لأبي هلال العسكري على سبيل التمثيل عند د. شوقي ضيف نجد الكتابين يغيبان عند د. علي عشري زايد إلى غير ذلك ممّا عرضنا له في المبحث السابق.

والمهمّ في سياق هذا المبحث هو أنَّ انتظام التبويب بحسب التطوّر العلميّ لا يطّرد في الكتابين، إذْ يداخله التبويب بحسب البيئات العلميّة. ولا إشكال في أنَّ يعتمد التبويب أساسًا آخر له داخل الأساس الرئيسي، شريطة أنْ يكون الأساس الداخلي في خدمة الرئيسي. ولكنّ الذي جرى هو أنَّ الأساس الداخلي – التبويب بحسب البيئات العلميّة – عمّق من مشكلة عدم تقدير الجهود الفرديّة، وإلغاء ما بينها من تمايز، ممّا جعل الجميع يتساوى في هذا التبويب، وفوّت الوقوف أمام تنامي حركة الدرس البلاغي في هذه الجهود، وبيان القَدْر الذي أدلى به صاحب كلّ جهد.

والحرص على اطّراد الأطوار قد يقود أحيانًا إلى شيءٍ من عدم التلاؤم بين الطور وما يطويه من جهودٍ علميّة. فمن ذلك

مثلًا أنّ طور (التعقيد والجمود) عند د. شوقي ضيف جاء شاملًا تقريبًا لمرحلة البلاغة العربيّة بعد عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري على اختلاف اتّجاهات هذه المرحلة. وقد جاء كتاب المثل السائر لضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) ضمن هذا الطور، ومن المعلوم أنَّ كتاب المثل السائر ليس ممّا يتّصل بالاتّجاه التقعيدي، بل دائمًا ما يكون مثالًا على كتب الاتّجاه المقابل، وهو الاتّجاه الأدبيّ الذي لا يحفل كثيرًا بالتقعيد والتقنين، ولعل شعور د. شوقي ضيف بعدم ملاءمة إدراج كتاب المثل السائر ضمن هذا الطور هو ما جعله يعنون للكتاب بعنوان فرعيّ داخل الطور هو: (دراسات جانبيّة).

ومن الأمور التي نلقاها في التبويب بحسب الطور العلمي هو الوقوف أمام معالم محدّدةٍ في كلِّ طور، فتُذكر جهود، وتُغفل أخرى، ولعل هذا ناشئٌ من طابعه التعميمي الذي يلف كلّ طور من الأطوار التي يقف عندها. فمثلًا تغيب في تبويب د. شوقي ضيف جهود ابن أبي الإصبع المصري، والعلوي صاحب الطراز، ولا يستبين القارئ جهودهما من التبويب، ولكن من القراءة الداخليّة للكتاب، فالتبويب لا يُعِين على جلاء تلك الجهود للقارئ. وهذا الأمر يظهر بصورةٍ أكبر في تبويب كتاب د. علي عشري زايد، فهو فضلًا عن أنّه يغفل مرحلة التقعيد والجمود، إذْ تجيء الإشارة إليها في عنوان فرعيٍّ كما أسلفنا، فإنَّه يقصر تبويب هذه المرحلة على السكّاكي، ولا يذكر من بدأها وهو الفخر الرازي، ولا يذكر أيضًا من تلا السكّاكي كالخطيب القزويني وشرّاح التلخيص. ولا تُستجْلى جهود الخطيب والشرّاح إلّا من خلال القراءة الداخليّة للكتاب لا التبويب، وأمّا

الفخر الرازي فيغيب عن كتاب د. علي عشري زايد فلا يظهر لا في التبويب، ولا في تضاعيف الكتاب.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنَّ القسم الثاني من التبويب عند د. علي عشري زايد جاء تبويبًا يعتمد على التصنيف المنهجي، أي تقسيم البلاغة العربيّة إلى مناهج تأليفيّة. وكانت هذه المناهج هي: (المنهج التجميعي، والمنهج الانطباعي، والمنهج التحليلي، والمنهج التقنيني المنطقي)، وفي الحقيقة أنَّ هذا التقسيم إلى مناهج، ليس إلا انعكاسًا لتبويب القسم الأوّل المرتكز على الأطوار أو المراحل العلميّة، فتقريبًا يعادل المنهجان التجميعي والانطباعي مرحلة التكامل المشترك، ويعادل المنهج التحليليّ مرحلة الاستقرار، ويعادل المنهج التقنيني المنطقي مرحلة السكّاكي وتجمّد البحث البلاغي.

وأهمَّ ما يُلْحظ على تبويب كتابي د. شوقي ضيف، ود. علي عشري زايد، هو أنَّ التأريخ لأطوار البلاغة العربيّة كان يجري من خلال الحديث عن المؤلّفات البلاغيّة، لا الأفكار البلاغيّة، فلا نجد تأريخًا يتابع أهمّ الأفكار التي شكّلت النظريّة البلاغيّة عند العرب، والمراحل التي مرّت بها نشأةً وتطوّرًا واكتمالًا، بل نجد حديثًا عن أهمّ كتب البلاغة مما يجعل كتابيهما "تاريخًا للتأليف البلاغي لا للبلاغة، ولا يخفى الفرق بين الوجهتين"[1].

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس "مشروع قراءة"، ط٣، بيروت، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ٢٠١٠م، ص١٢.

المبحث الرابع

التبويب بحسب الحدث المركزي

التبويب بحسب الحدث المركزي هو التبويب الذي يتّخذ حدثًا علميًّا نقطة ارتكازٍ يقيم عليها تاريخ البلاغة، فيكون لهذه النقطة ما يسبقها وصولًا إليها بوصفه الحدث الأبرز، ولها كذلك ما يتلوها. فالتأريخ للبلاغة يدور عليها، وبالاستناد إليها تُقسَّم البلاغة إلى مراحل. ويعدّ كتاب (التفكير البلاغي عند العرب إلى القرن السادس، مشروع قراءة للدكتور حمّادي صمّود) ممثّل هذا النوع من التبويب.

ولا شكَّ أنَّ التبويب بحسب الحدث المركزيّ هو صورةٌ من صور التبويب السابق بحسب التطوّر العلمي، ولكنَّها صورةٌ خاصّةٌ تختزل التطوّر في حدثٍ واحدٍ يكون هو المركز الذي تدور حوله بقيّة الأطوار أو المراحل. فالغاية التي يقصدها هذا التبويب هي أيضًا الوقوف على أهمّ الأطوار التي مرّت بها البلاغة العربيّة في نشأتها، وصعودها، وهبوطها.

والذي دفع د. صمّود إلى هذا النوع من التبويب حسب ما يقول هو طول المدّة التي تصدّى لها كتابه، إذْ "كان لا بدّ لدراسة أطوار البلاغة العربيّة على مدى يزيد على ستة قرون فيحتوي هذا العلم نشأةً وتطوّرًا واكتمالًا من البحث عن نقطة ارتكازٍ تكون بمثابة مركز الثقل لذلك المحور الزمني الطويل، تذلّل أمامنا بعض العقبات، وتقوم علامةً بارزةً تهدينا في محاولتنا تبيّن مقدار ما ساهمت به الفترات، قبلها وبعدها، في بناء العلم"[١].

(١) المصدر السابق، ص١٥.

وتحديد نقطة الارتكاز ليس بالأمر الهيّن، بل هو "أمرٌ دقيق وصعب، لا يمكن أنْ يقوم على المواضعة المنهجيّة البسيطة، ومجرّد الافتراض؛ لأنَّه ملتحمٌ بتأويلنا لمسار العلم ذاته وأوّل نتيجة، وربّما أهمّها، عن قراءتنا للتراث المتعلّق به؛ لذلك وجب أنْ يقوم على مقاييس من مادّة البحث يعتقد الباحث أنّها تخدم بصورة موضوعيّة اختياره، أو هي على الأقلّ، تدعم اجتهاده وتنجو به عن الارتجال والاعتباط"(١).

ويقدّم د. صمّود نقدًا للجهود التي سبقته نحو التأريخ للبلاغة العربيّة؛ لأنها في رأيه باشرت "المسألة من زاوية تاريخيّة – حدثيّة أضعفت جانبَ التأليف والاستنتاج، كما أنها لم تعْتنِ عنايةً كافيةً بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جماليّة اللغة عند العرب، فجاء جلّها تاريخًا للتأليف البلاغي لا البلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجهتين. ومن ثمّ تشابهت هذه المؤلّفات في هيكلها العامّ، وحتّى في مواقف أصحابها من بعض المسائل الجزئيّة، فتراها تعيد النصوص نفسها، وتوظّفها بنفس الكيفيّة، وهي في كلّ ذلك تُعْرِضُ عن استكناه مخزونها الفكري والأدبي فتبقى صامتةً مغلقةً على أسس النظريّة الأدبيّة"(٢).

ولهذا حاول د. صمّود الانتقال من هذا النهج التاريخيّ الذي رآه قائمًا على رصد المؤلّفات البلاغيّة إلى نهجٍ تاريخيٍّ آخر يقوم على التركيز على "المنعرجات الحاسمة في تطوّر العلم، وبيان الترابطات القائمة بين مختلف حلقاته"(٣)، والتركيز

(١) المصدر السابق، ص١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢.

أيضًا "على المواقف البارزة والإضافات الحقيقيّة"[١]، فالتأريخ الذي يرومه للبلاغة ليس تأريخًا للرجال، ولا للمؤلّفات، وإنّما هو تأريخ للقضايا والأفكار؛ لهذا حاول أنْ يبني عمله كما يقول: "على منهجيّة تحاول التوفيق بين التأليف والتحليل، وتلتزم دراسة التفكير البلاغي اعتمادًا على قضايا هامّة"[٢]، وواضحٌ أنّ هذا ما دعاه إلى أنْ يعنون كتابه بعنوان: (التفكير البلاغي).

ونعرض الآن تبويب كتاب د. صمّود، لننظر بعدها مدى وفاء الكتاب بما رامه له مؤلّفه، والتزامه بما قدّم له.

- كتاب: التفكير البلاغي عند العرب إلى القرن السادس، مشروع قراءة للدكتور حمّادي صمّود[٣].

المقدّمة

الباب الأوّل: البلاغة قبل الجاحظ

التمهيد

- الفصل الأوّل: عوامل النشأة

أوّلًا: الشعر

ثانيًا: القرآن

ثالثًا: تقعيد اللغة

رابعًا: الحاجة إلى التعلّم والتعليم

خامسًا: المؤثّرات الأجنبيّة

- الفصل الثاني: المادّة البلاغيّة

أوّلًا: القوانين والمبادئ العامّة

ثانيًا: المفهوم والمصطلح الموحّد

ثالثًا: المسائل البلاغيّة المتعلّقة بالتراكيب والمعاني

---

(١) المصدر السابق، ص١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٧١.

رابعًا: الوجوه المتعلّقة بدلالة الألفاظ
خاتمة الباب الأوّل
الباب الثاني: الحدث الجاحظي "التأسيس"
• الفصل الأوّل: خصائص المادّة البلاغيّة في مؤلّفاته
المادّة البلاغيّة في مؤلّفاته
• الفصل الثاني: مفهوم البيان عند الجاحظ
أوّلًا: أنواع الدلالات على المعاني
ثانيًا: من العلامة مطلقًا إلى العلامة اللغويّة
• الفصل الثالث: البيان باللغة
• الفصل الرابع: المتكلّم
أوّلًا: مقتضيات "الوظيفة"
ثانيًا: مقتضيات "الإبانة"
ثالثًا: مقتضيات "المقام"
• الفصل الخامس: الكلام
أوّلًا: حدّ البلاغة
ثانيًا: خصائص الكلام البليغ
خاتمة الباب الثاني
الباب الثالث: البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس "البناء"
توطئة
• الفصل الأوّل: البداية الحاسمة لفترة ما بعد الجاحظ
١ – ابن قتيبة
٢ – البلاغة عند المبرّد
٣ – كتاب "البديع" لعبدالله بن المعتزّ
• الفصل الثاني: أهمّ قضايا التفكير البلاغي إلى القرن السادس
أوّلًا: المفاهيم
ثانيًا: المنهج
ثالثًا: الإجراء
خاتمة الباب الثالث
الخاتمة العامّة

يتّضح من خلال هذا العرض للتبويب أنّ الحدث المركزيّ الذي أدار عليه د. صمّود تبويب كتابه هو ما أسماه (الحدث الجاحظي). والذي دعا إلى اتّخاذ الجاحظ (ت٢٥٥هـ) نقطة ارتكاز، ومرحلة هامّة وحاسمة في تاريخ البلاغة العربيّة عدة عوامل، منها: أنّ مؤلّفاته تعدّ "أقدم آثار وصلتنا لها علاقة بأفانين التعبير"(١)، كما أنَّه "صاحب أوّل تأليفٍ يُخَصَّص لدراسة الكلام البليغ وضوابط المستوى الفنّي من اللغة، ولم يقتصر هذا المؤلَّف على الأحكام العامّة، والانطباعات الذوقيّة، بل دعْم ذلك بأسسٍ نظريّةٍ هامّة، وتفكير بلاغي يدلّان على أنَّ جهوده في الموضوع، تجاوزت مجرّد الرواية والجمع إلى الخلق والابتكار"(٢)، ومن تلك العوامل أنَّ الجاحظ "سيطبع البحث البلاغي، في مستوى التصوّرات الكبرى وحتّى في بعض قضاياه الجزئيّة، بطابعه الخاصّ وستكون مؤلّفاته أهمّ مرجع لعلماء البلاغة بعده، تشير إليه، وتنقل عنه، وتشيد بفضله"(٣).

وأيًّا ما كان موقفنا من هذا التقدير الذي يعطيه د. صمّود لدور الجاحظ في البلاغة العربيّة، إذ نعتقد أنَّ الجاحظ مرحلة مهمّة في البلاغة العربيّة، ولكنْ أنْ يتّخذ نقطة ارتكازٍ لها فنظنَّ أنَّ في ذلك غمطًا لجهود تلت الجاحظ، وأسّست مشروعًا نظريًّا للبلاغة العربيّة كعبدالقاهر الجرجاني، ولعلَّ هذا ما دعا أحد الدارسين في مراجعته لكتاب د.صمود إلى القول: "ولكنّ البأس – فيما نرى – في اقتناع المؤلّف الزائد بأنَّ الجاحظ هو البلاغيّ

(١) المصدر السابق، ص١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥، ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦.

المنتظر"[1]. المهمّ أنَّ د. صمّود أقام تبويبه على حدثٍ مركزيٍّ هو (الحدث الجاحظي)، وعدَّه مرحلةً حاسمةً في البلاغة العربيّة، فيكون تاريخ البلاغة قائمًا على ثلاث مراحل يحتلّ الجاحظ منها القلب كما يتّضح في التبويب، وهي: البلاغة قبل الجاحظ، الحدث الجاحظي، البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس.

ويروم د. صمّود كما أسلفنا أنْ يكون كتابه تأريخًا للبلاغة ينشد التأريخ لأفكارها وقضاياها. وعند النظر في تبويب الكتاب نخرج بنتيجةٍ مؤدّاها أنَّ جلّ الأفكار التي دار عليها الكتاب هي ممّا ينتمي إلى الجانب الجمالي الأسلوبي القائم على "التصرّف في اللغة على جهة الإنشاء بالدرجة الأولى"[2]، والسبب في ذلك كما يقول صاحب الكتاب عن نفسه، هو أنَّ الكتاب كُتِبَ في مرحلة "انتماء صاحبه إلى جيلٍ وقع في فتنة البنيويّة، وآمن بإمكانيّة قيام علمٍ للأدب قوامه مكوّنات النص اللغويّة وما يصل بينها من علاقات"[3]، ولذلك تركّز الكتاب في التأريخ للقضايا والأفكار على البعد الجمالي الشعري، وأغفل البعد التداولي بما يحويه من مباحث حجاجيّة استدلالية، ولو فعل ذلك، واعتنى بالبعدين معًا بقدرٍ واحدٍ من العناية "لكانت الأمور ربّما على غير ما هي عليه فيه"[4].

---

(١) رجاء عيد، عرض ومناقشة كتاب: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس "مشروع قراءة"، مجلة فصول، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، العدد الأوّل، ١٩٨٤م، ص٢٣٥.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٣.

(٣) المصدر السابق، صIII.

(٤) المصدر نفسه، ص٩.

ولكن هل التزم الكتاب فعلًا بما قصده بألّا يكون تاريخًا للتأليف البلاغي، بل تاريخًا لأهم أفكار البلاغة وقضاياها التي شكّلت المنعرجات الحاسمة في تطوّر العلم؟.

الذي يتّضح من تبويب الكتاب أنَّ الكتاب لم يلتزم التزامًا تامًّا بما أراده، فلم يطّرد له انتظام تبويب البلاغة بحسب أفكارها وقضاياها. وأوّل مظاهر ذلك أنَّ القسم الثاني الذي يعدّ القسم الأساسي للكتاب وهو (الحدث الجاحظي) دار حول مؤلّفات الجاحظ وما جاء فيها من أفكارٍ وموادٍّ بلاغيّة، أي لم يكن قسمًا يبحث نموّ الأفكار البلاغيّة وتطوّرها تاريخيًّا، بل كان رصدًا للأفكار التي جاءت في كتب الجاحظ. وقدْ شعر المؤلّف نفسه بأنَّ هذا القسم لم يكن يسير في خطِّ التبويب بحسب الأفكار والقضايا، وأنَّه خارجٌ عن المنهجيّة التي أراد التزامها في تبويب كتابه، فقال بصدد ذلك: "ولم تخرج عن هذا الالتزام إلّا في القسم الثاني المخصّص للجاحظ؛ لأنّه في اعتقادنا، وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تبقى الفترات الموالية تستلهم مادّته وتستحضر مقاييسه"(١).

ويظهر هذا الخروج أيضًا في الجزء الأوّل من القسم الثالث من كتابه – البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس – هذا الجزء الذي أسماه: (البداية الحاسمة لفترة ما بعد الجاحظ)، إذْ كما يتّضح من التبويب أنَّ هذا الجزء سار في طريق الحديث عن المؤلّفات لا الأفكار، فهو حديث عن الإسهام التأليفي لكلٍّ من: ابن قتيبة، والمبرّد، وابن المعتزّ. فالمؤلّف في هذا الجزء "يعود إلى تتبّع ما أُلِّف من كتب، ويترك تتبّع الفكرة، وملاحقة تنقّلاتها الفكريّة في مسارها الزمني، وقد عرضه ذلك لشيءٍ من التشتّت

(١) المصدر السابق، ص١٤.

لحق بمنهجه"[1]. وهو أمرٌ لم يَغِبْ عن المؤلّف ذاته، وشعر به فقال عن ذلك: "كما خرجنا عن هذا الالتزام في تحديدنا البدايةَ الحاسمةَ لفترة ما بعد الجاحظ؛ لأهمية بعض المساهمات الفرديّة في التمهيد لظهور كتاب عبدالله بن المعتزّ البديع. ثمَّ لأهميّة هذا الكتاب ذاته؛ لأنَّه أوّل مظهر من مظاهر استقلال التأليف البلاغي رَبَطَ فيه صاحبه دراسة وجوه البلاغة بجملة من الضوابط سيكون لها بدورها أثرٌ عميقٌ في النقّاد والبلاغيّين المتأخّرين"[2].

ويعدّ الجزء الثاني من القسم الثالث من كتاب د. صمّود الذي عنونه بـ(أهمّ قضايا التفكير البلاغي إلى القرن السادس) الممثّل الأبرز للمنهج الذي قصده، وهو بناء تاريخ البلاغة بناءً يقوم على تتبّع أفكار البلاغة وقضاياها، إذ دار هذا الجزء كما يظهر من تبويب الكتاب حول ثلاث قضايا هي: (المفاهيم، والمنهج، والإجراء) حاول من خلالها أنْ يؤرّخ للبلاغة العربيّة في الحقبة التي تلت الجاحظ إلى نهاية القرن السادس الهجريّ تأريخًا ينشد متابعة نموّ تلك القضايا في رحلتها الزمنيّة خلال تلك الحقبة.

وهذا يقودنا إلى تقرير نتيجةٍ مفادها أنَّ هناك مفارقةً واضحةً بين نمط التبويب الذي اتّخذه كتاب د. صمّود والغاية التي قصدها، وهي تأريخ البلاغة تأريخًا قائمًا على ملاحقة أهمّ الأفكار والقضايا التي شكّلت معالمها. فلم يستجب دائمًا ذلك النمط لهذه الغاية، ولا أدلّ على ذلك من خروج مركز النمط وهو (الحدث الجاحظي) عن هذه الغاية كما أقرّ المؤلّف نفسه بذلك.

(١) رجاء عيد، عرض ومناقشة كتاب: التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٣٧.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٤.

المبحث الخامس

التبويب بحسب الأصول والامتدادات

والمقصود بالتبويب بحسب الأصول والامتدادات هو ذلك التبويب الذي يعتمد في تأريخه على بحث الأصول العلميّة والمعرفيّة التي كوّنت البلاغة العربيّة ثمّ بيان ما انبثق عن هذه الأصول من امتدادات أو مسارات سلكتها تلك البلاغة.

ويعدّ كتاب (البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها للدكتور محمّد العمري) ممثّل هذا النوع من التبويب.

وإذا كان كتاب د. صمّود كما بيّنا في المبحث السابق ينتمي في معالجته للبنيويّة اللسانيّة فإنَّ كتاب الدكتور العمري جاء مزيجًا من المعالجة البنيويّة اللسانيّة وجمالية التلقّي في بعدها التاريخي كما يبيّن المؤلّف ذلك عن كتابه قائلًا: "ولا شكّ أنّ للمعالجة البنيويّة اللسانيّة جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعاليّة، ولذلك حاولنا استثمارها إلى أقصى حدّ ممكن، غير أنّنا حاولنا أنْ نستغلّ بعض مقترحات جماليّة التلقّي في بعدها التاريخي"[١]. فهو يحاول في قراءته لتاريخ البلاغة العربيّة أنْ تكون قراءةً تركيبيّةً شاملة؛ لأنَّ "الأسئلة التي تطرحها القراءة تتطلّب مبدئيًّا معالجةً بنيويّة تقوم على التحليل والإحصاء، كما تتطلّب معرفةً سوسيو أدبيّة. فهي قراءةٌ تركيبيّةٌ تعتمد النظرة الشموليّة. تفهم السابق من اللاحق، واللاحق من السابق. ولكي تكون مثمرةً ينبغي أنْ تتحوّل إلى مستوى الهمّ أو

(١) د.محمّد العمري، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، الدار البيضاء – بيروت، أفريقيا الشرق، ١٩٩٩م، ص٩، ١٠.

الانشغال الموجّه الذي يفسح المجال للتحليل والتأريخ لسدّ الفجوات"[1].

ونعرض فيما يأتي تبويب الكتاب:

- **كتاب: البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها للدكتور محمّد العمري[2].**

خطبة الكتاب

المدخل العام: مقدّمات وخلاصات

أ – التأريخ قراءة

ب – خطوط الطول والعرض: البحث عن الأنساق

١ – المشاريع والمنجزات

٢ – النسق والمصطلح

ج – منابت البلاغة وتربتها

١ – العوامل الأوليّة: المنابت

٢ – العوامل المساعدة

د – المسارات الكبرى

هـ - من منجزات البلاغة العربيّة

١ – الشمول

٢ – العمق

القسم الأوّل: الأصول

- **الفصل الأوّل: البلاغة ونقد الشعر**

المبحث الأوّل: استكشاف المكوّنات البلاغيّة للشعر

أ – بداية الوعي بالخصوصيّة النوعيّة للشعر

ب – البديع ومحاسن الكلام

المبحث الثاني: البلاغة والاختيار (الحماسة نموذجًا)

أ – تمهيد

---

(١) المصدر السابق، ص١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٣٣.

ب – أثر الاختيار في النقد

- الفصل الثاني: البلاغة ومعيرة اللغة

المبحث الأوّل: مجاز القرآن

المبحث الثاني: الضرورة الشعريّة

- الفصل الثالث: من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز

المبحث الأوّل: التبرير: الدفاع عن النص القرآني

أ – الأسئلة الكلاميّة عند ابن قتيبة

ب – المجاز اللغوي والمجاز الكلامي

المبحث الثاني: بيان وجه الإعجاز

١ – وجه التحدّي

٢ – اختزال البديع وتفسير الفعاليّة

- الفصل الرابع: البلاغة والمعرفة، من البيان إلى البلاغة: الجاحظ

أ – مشروع البيان

ب – مفهوم البيان: المعرفة والإقناع

ج – مكوّنات الخطاب البياني

د – المحتوى الفكري للبيان

ه – البيان بعد الجاحظ

- الفصل الخامس: القراءة العربيّة للبلاغة اليونانيّة

المبحث الأوّل: فنّ الشعر من المحاكاة إلى التغيير

أ – إشكاليّة القراءة لفنّ الشعر

ب – البحث عن القوانين: الكليّات

ج – الإجراءات التحويليّة: نقل المركز من المحاكاة إلى التغيير

المبحث الثاني: فنّ الخطابة، الصحّة والاعتدال

أ – الخطاطة العامّة لمكوّنات الخطاب الإقناعي

ب – الطابع المميّز لفنّ الخطابة: الوضوح والاعتدال

القسم الثاني: الامتدادات، أو النماذج الكبرى

- الفصل الأوّل: مقدّمات عامّة: ممهّدات وخلفيّات

المبحث الأوّل: المحاولات الأولى لبناء بلاغة عامّة

أ – الصناعتان: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري
ب – سؤال الشعريّة في "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر
المبحث الثاني: الخلفيّات المذهبيّة للمشاريع البلاغيّة البلاغة وطبيعة الكلام
١ – البلاغة والأصوات
٢ – البلاغة والمعاني
- الفصل الثاني: بين الغرابة الشعريّة والمناسبة التداوليّة
المبحث الأوّل: التحوّلات، خطاطة الأسرار والدلائل
١ – الغرابة الشعريّة، أو سرّ الأسرار
٢ – المناسبة التداوليّة (الدلائل)
المبحث الثاني: الثوابت والمنجزات الأساسيّة
أ – إجراءات واقتراحات
ب – الوظيفة الشعريّة
- الفصل الثالث: بلاغة الصحّة والتناسب: سرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي
المبحث الأوّل: المشروع والمنجز: من الأصوات إلى المعاني
١ – الأرضيّة المنهاجيّة
٢ – من فصاحة الأصوات إلى بلاغة المعاني
المبحث الثاني: الرؤية البلاغيّة في المنجز: الصحّة والتناسب
١ – المحافظة
٢ – الاعتدال
٣ – الانسجام
٤ – التناسب
- الفصل الرابع: البلاغة المعضودة (بالنحو والمنطق)
المبحث الأوّل: من علم الأدب إلى علم البلاغة (قراءة في مفتاح العلوم)
١ – المشروع
٢ – المنجز
٣ – هيمنة النحو والمنطق على الوظائف البلاغيّة

المبحث الثاني: البلاغة النقديّة أو النقد البلاغيّ (قراءة في منهاج البلغاء)

١ – المشروع البلاغي عند حازم

٢ – المنجز: الرؤية الشعريّة عند حازم

من الطبيعي أنْ يجيء تبويب الكتاب بعد مدخله العامّ في قسمين رئيسيّن، قسمٌ يتناول الأصول، وقسمٌ يتناول الامتدادات أو المسارات. وأمّا المدخل فقد حوى مقدّمات وخلاصات تجمل الكتاب عمومًا. وتأتي أهميّة المدخل من كون الكتاب طويلًا متعدّد الفصول فيه عرضٌ مفصّل للمؤلّفات البلاغيّة ممّا يقضي "بانقطاع الخيوط الواصلة بين المفاهيم والقضايا العامّة أحيانًا، أو على الأقلّ، صعوبة استيعابها قبل الانتهاء من قراءة الكتاب ككلّ"(١). فكان لا بدّ من وجود هذا المدخل الذي يصل خيوط الكتاب، خاصّة ونحن "في عصر السرعة، فمن ذا يستطيع اليوم حبس نفسه حتّى ينتهي من قراءة فصولٍ كاملة، بل حتّى الانتهاء من الكتاب ليعيد آخره على أوّله؟ إنْ لم تنقرض هذه الفصيلة من القرّاء فقد صارت نادرة"(٢).

وجاء تلخيص الكتاب في المدخل عبر الحديث عن العوامل التي نتجت عنها أصول البلاغة، والمسارات الكبرى التي انتظمت فيها البلاغة العربيّة.

وكما يتّضح من التبويب فقد حوى القسم الأوّل من الكتاب – الأصول – خمسةَ فصولٍ، يحاول كلُّ فصلٍ أنْ يستكشف أصلًا من أصول البلاغة العربيّة.

---

(١) المصدر السابق، ص١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣.

يتناول الفصل الأوّل أصل (البلاغة ونقد الشعر). وهو أصلٌ تطبيقيّ قام على تأمّل النص الشعريّ سواءً عبر دراسة الملاحظات التي سيقت لتقويم الأشعار بدءًا من العصر الجاهليّ إلى أنْ ثارت في العصر العبّاسيّ "الخصومة بين القدماء والمحدثين حول الأسبقيّة إلى مجموعة من الصور سُمّيت: البديع"(١)، أو عبر عمليّة اختيار الشعر وما أحدثه الاختيار من أثرٍ في النقد.

وأمّا الفصل الثاني فقد درس أصل (البلاغة ومعيرة اللغة). وهو أصّل نتج من هَمِّ تقنين اللغة، وذلك حين أدّى "الاطّراد القياسيّ الذي تطلّبه وضع النحو إلى التعارض مع النصّ القرآني من جهة، والشعر العربيّ من جهةٍ ثانية"(٢)، مما قاد إلى فتح باب التوسّع في اللغة سواءً من خلال ما طبّقه أبو عبيدة في مجاز القرآن ممّا اضطلع ببيانه المبحث الأوّل من هذا الفصل كما يتّضح من التبويب، أو من خلال "الحديث عن ضرورة الشعر التي هي الوجه الآخر لعمليّة التوسّع"(٣) التي قام المبحث الثاني من هذا الفصل بعبء دراستها. فالغاية التي قصدها هذا الأصل هي "الملاءمة بين النصّ المعياري الذي أحاط به القياس النحوي والنصّ اللغوي المتميّز الذي عولج عند اللغويين ضمن مجاز القرآن وضرورة الشعر"(٤).

ودرس الفصل الثالث أصل (البلاغة والنصّ المقدّس) الذي انطلق (من تبرير المجاز إلى بيان وجه الإعجاز). وهو أصّل

(١) المصدر السابق، ص٢٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٢١.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٨.

ارتكز على تنزيه النص القرآني. وذلك حين استثمر المتكلّمون جهود اللغويين حين برّر اللغويون "انزياحات تعابير النصّ القرآني عن القواعد الجديدة"(١)، فأثار ذلك "مجموعةً من الأسئلة الفكريّة حول انسجام النصّ القرآني"(٢)، فرأى المتكلّمون أنّ الجواب اللغوي لم يعد كافيًا(٣)، وفي هذا الإطار طوّر المتكلّمون "مفهوم المجاز من المستوى اللغوي العامّ (كلّ ما خالف القياس والمألوف) إلى المستوى الكلاميّ الخاصّ الذي يعني تحوّل الدلالة (المجاز مقابل الحقيقة)"(٤). ويعدّ عمل ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ممثّلًا لذلك، وهو ما كان موضع دراسة المبحث الأوّل من هذا الفصل كما يتّضح من التبويب. ثمّ انتقل عمل المتكلّمين "من التنزيه إلى البحث عن المزيّة"(٥)، وذلك عبر سؤالٍ فحواه: "كيف يتفوّق النصّ القرآني على النص الشعري العربي؟ وكيف يتفوّق نصٌ على نصٍّ إجمالًا؟"(٦)، وكان البحث عن المزيّة البديعيّة ناتجًا من نواتج هذا السؤال. واضطلع المبحث الثاني من هذا الفصل بدراسة هذا السؤال والمزيّة البديعيّة.

وأمّا الفصل الرابع فدرس أصل (البلاغة والمعرفة، من البيان إلى البلاغة). وإذا كان أصل (البلاغة ومعيارية اللغة) نابعًا من هَمِّ تقنين اللغة، وكان أصل (البلاغة والنصّ المقدّس)

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٣.

نابعًا من تنزيه النصّ القرآني، فإنَّ هذا الأصل نابعٌ من زاوية المعرفة، ودار هذا الفصل بصفةٍ خاصّةٍ حول كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ الذي "وصل إلى بلاغة الخطاب الإقناعي من خلال البحث في المعرفة بصفةٍ عامّة: كيف نَفهَم وكيف نُفهِم؟ بلاغة قوامها الاعتدال في استعمال الصور البلاغيّة حسب الأحوال والمقامات" (١).

وتناول الفصل الخامس أصل (القراءة العربيّة للبلاغة اليونانيّة). وواضحٌ أنّه أصلٌ يدرس التفاعل الثقافي بين الثقافة العربيّة والثقافة اليونانيّة، والسبب الذي قاد إلى التركيز على الثقافة اليونانيّة دون الثقافات الأخرى "أنّنا لا نتوفّر على عملٍ مبنيٍّ موثوقٍ به، يسمح برصد الآثار، شبيهٍ بعمل أرسطو"(٢)، وكما يستبين من التبويب فقد دار المبحث الأوّل من هذا الفصل حول القراءة العربيّة لكتاب (فنّ الشعر)، والمبحث الثاني حول قراءة كتاب (فنّ الخطابة).

تلك كانت عمليّة استكشاف أصول البلاغة العربيّة في القسم الأوّل من الكتاب كما يوضّح التبويب. وأمَّا القسم الثاني فكان لبيان الامتدادات أو المسارات أو النماذج التي انبثقت عن تلك الأصول، فسلكتها البلاغة العربيّة.

وقبل الشروع في بيان هذه الامتدادات قدّم د. العمري لهذا القسم كما يتّضح من التبويب بفصلٍ تمهيدي دار مبحثه الأوّل حول المحاولات الأولى لبناء بلاغةٍ عامّةٍ قبل القرن الخامس الهجري ممثلًا لها بأبي هلالٍ العسكري، وقدامة بن جعفر.

---

(١) المصدر السابق ، ص٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢١.

وأمّا المبحث الثانيّ فجاء للحديث عن الخلفيّات المذهبيّة للمشاريع البلاغيّة.

وأوّل الامتدادات هو امتداد التراوح (بين الغرابة الشعريّة والمناسبة التداوليّة) الذي خصّص له د. العمري الفصل الثاني من القسم الثاني من كتابه، ودار هذا الامتداد حول كتابي عبدالقاهر الجرجاني. وكما هو ملاحَظ فهو امتدادٌ ذو بعدين، بُعْد (الغرابة الشعريّة)، وبُعْد (المناسبة التداوليّة). وكان البعد الأوّل خاصًّا بكتاب أسرار البلاغة من خلال ما جرى فيه "من تأويل للمحاكاة الأرسطيّة إلى (تخييل) و(تغيير)، وتوظيفها في قراءة الشعر الأرسطي"(١). وأما البعد الآخر فجاء خاصًّا بكتاب دلائل الإعجاز عبر بحث "ملاءمة العبارة للمقاصد ضمن نظريّة النظم الإعجازيّة"(٢).

وأما الامتداد الثاني فخُصّص له الفصل الثالث وهو ما أسماه (بلاغة الصحة والتناسب). ودار هذا الامتداد حول كتاب (سرّ الفصاحة) لابن سنان الخفاجي، وهو امتدادٌ ذو ارتباط ببُعْد المناسبة التداوليّة التي جرت في دلائل الإعجاز ولكن من جهة "البحث عن بلاغة كلاسيكيّة ذوقيّة تقوم على الصحّة والمناسبة"(٣). ومع ارتباط كلٍّ من دلائل الإعجاز للجرجاني، وسرّ الفصاحة لابن سنان ببُعْد المناسبة التداوليّة فإنَّه لم يتّحد تصوّرهما بسبب انطلاق كلّ منهما من خلفيّة مذهبيّة مغايرة للآخر. وهنا تأتي أهميّة التمهيد الذي مهّد به د. العمري للقسم الآخر من كتابه، إذ دار المبحث الثاني كما قدّمنا وكما يتّضح من

(١) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠.

التبويب حول الخلفيّات المذهبيّة للمشاريع البلاغيّة، فجاءت الفقرة الأولى من هذا المبحث مختصّةً بالربط بين البلاغة والأصوات في سرّ الفصاحة لابن سنان، وجاءت الفقرة الأخرى مختصّةً بالربط بين البلاغة والمعاني عند الجرجاني، وما هذا الانقسام بين ابن سنان والجرجاني إلا نتيجةٌ للاختلاف المذهبي بينهما، حيث بنى ابن سنان "تصوّره البلاغي على اعتبار الكلام أصواتًا ومقاطع متأثّرًا بمذهب المعتزلة"(١)، وعلى النقيض من ابن سنان "اعتمد عبدالقاهر الجرجاني التصوّر السنّي – الأشعري على وجه التحديد – في القول بأنّ الكلام حديثٌ نفسي أي معانٍ، فحاول بناء بلاغته على أساسٍ دلالي حسب التأويل العربيّ للمحاكاة في كتابه أسرار البلاغة، ثمّ حسب المعاني التركيبيّة النظميّة المقصديّة في كتابه دلائل الإعجاز. ولم يقبل من فصاحة الأصوات إلّا ما أمكن تأويله دلاليًّا، مثل الجناس المستوفي القائم على الإيهام"(٢).

وجاء الفصل الرابع من القسم الآخر من الكتاب خاصًّا بالامتداد الثالث والأخير، وهو (البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق) المتعلّق بالبحث عن بلاغةٍ عامّةٍ كليةٍ. ولكي تكون البلاغة عامّةً كليّةً كان عليها أنْ تكون "معضودةً بالمنطق والنحو"(٣)، وهو ما اتّضح في عمليّ السكّاكي وحازم القرطاجنّي اللذين تقاسمهما الفصل الرابع. فجاء المبحث الأوّل من هذ الفصل كما يستبين من التبويب بحثًا في عمل السكّاكي، وجاء المبحث الآخر بحثًا في منهاج حازم. فعمل السكّاكي "يدخل في

(١) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦.

دائرة البلاغة المعضودة، فبلاغته معضودةٌ بالنحو والمنطق"[١]، وذلك مثلما "عُضِدت بلاغة حازم بالأصول المنطقيّة والفلسفيّة"[٢]. وانطلاقًا من محاولة الوصول إلى بلاغةٍ عامّةٍ كليّةٍ جاء مشروع السكّاكي تحت اسم (علم الأدب) [٣]، وجاءت بلاغة حازم "الشاملة ردًّا موضوعيًّا على البلاغة المختزلة"[٤]. ولأجل ذلك مهّد د. العمري في المبحث الأوّل من تمهيد القسم الثاني من كتابه بالمحاولات الأولى التي سعت إلى بناء بلاغة عامّة قبل القرن الخامس، وهما محاولتا أبي هلال العسكري، وقدامة بن جعفر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويتّضح ممّا تقدّم الجهد الهائل الذي قدّمه د. العمري في محاولة تأريخه للبلاغة العربيّة عبر استكشاف أصولها، وما نتج عن هذه الأصول من امتدادات. ومع ذلك فإنّ تبويب الكتاب جاء متشعّبًا لا يسلس انقياده للقارئ إلّا بعد طول مراجعةٍ وتأمّل، لا للتبويب فحسب، بل للتبويب ومضمون الكتاب.

كما أنَّ التبويب لا يساعد على بيان الجسور الواصلة بين الأصول والامتدادات، إذْ لا تستبين الصلة بين الأصول والامتدادات إلّا بعد قراءةٍ شاملةٍ للكتاب؛ لأنَّ التبويب وإنْ كان في بنائه العامّ منطقيًّا، فإنَّ عناوين الأصول والامتدادات في التبويب تجيء كجزرٍ منفصلة تفتقد ما يصل بينها. والمهمّة المعلّقة بأيّ تبويب هي تقديم إضاءةٍ عامّةٍ للترابط القائم بين فصول الكتاب. ولعلّ هذا ما شعر به المؤلّف نفسه، فدعاه ذلك

(١) المصدر نفسه، ص٤٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٧٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٦.

إلى بيان الخيوط الواصلة بين كتابه في مدخل الكتاب كما اتّضح ذلك سابقًا.

لم تكن صياغة العناوين في تبويب الكتاب - خاصّةً في الأصول - منبئةً بالفحوى، فعناوين من مثل: (البلاغة ونقدالشعر/ البلاغة ومعيرية اللغة) هي عناوين قضايا أكثر من أن تكون عناوين لأصولٍ يُراد الكشف عنها.

جاء الحديث - خاصّةً في الامتدادات - حديثًا عن المؤلّفات البلاغيّة، فالمؤلَّف هو حاضن الامتداد، ولم يكن الامتداد يجيء إلا من خلال المؤلَّف، وهذا ما قيّد من حركة الكشف عن تطوّر الامتداد، وصلته بالأصل الذي نتج عنه. فالنظر في التبويب الداخليّ للامتدادات يحيلنا إلى نظرٍ في المؤلّفات أكثر من أنْ يكون نظرًا لامتداد يشقّ مساره في رحلة التأليف البلاغيّ الممتدّة.

وعلى الرغم من كلّ ذلك يبقى كتاب د. العمري من أشمل المحاولات المعاصرة التي حاولت التأريخ للبلاغة العربيّة من منظورٍ شموليٍّ يصل الأفكار بمنابتها، ويتابع حركة نموّها، ويلمُّ ما تشعّث منها في بناءٍ عامٍّ يستكشف الأصول، ويقف على المسارات الناتجة عنها.

خاتمة

درس البحث خمسة أنماطٍ من التبويب جاءت عليها كتب تاريخ البلاغة المعاصرة، وهي: التبويب بحسب أشخاص العلماء، والتبويب بحسب البيئات العلميّة، والتبويب بحسب التطوّر العلمي، والتبويب بحسب الحدث المركزي، والتبويب بحسب الأصول والامتدادات. ويمكن أنْ نجمل أهمّ النتائج فيما يأتي:

- إنَّ التبويب بحسب أشخاص العلماء يسير في مسارٍ رتيبٍ لا يكشف حركة تطوّر علم البلاغة، والمراحل التي مرّت بها نشأةً وصعودًا وهبوطًا، وهو أقرب إلى أنْ يكون في تاريخ الأعلام والتراجم منه في تاريخ العلم.
- لا يختلف التبويب بحسب البيئات العلميّة كثيرًا عن التبويب بحسب أشخاص العلماء إلا في جمع الجهود العلميّة في مجموعات، فهو يشابهه في عدم ملاءمته للكشف عن تطوّر علم البلاغة، وذلك بسبب حرصه على توزيع العلماء في بيئات، ممّا جعله يسير في مسارٍ أفقي يوفّق بين توزيع العلماء في تلك البيئات أو المجموعات، وغاب عنه بحث تطوّر العلم في مسارٍ عموديّ يشقّ رحلة البلاغة العربيّة عبر تاريخها الممتدّ كاشفًا ما مرّت به من أطوار. وإذا كان التبويب بحسب أشخاص العلماء أقرب إلى كتب تراجم الأعلام فإنَّ هذا النوع من التبويب لا يفارقه إلّا في الدرجة لا النوع، بحيث نكون قد انتقلنا من مشابهة كتب تراجم الأعلام المنفردة إلى مشابهة كتب تراجم الطبقات.

● وأمّا التبويب بحسب التطوّر العلمي وإنْ كان طمح إلى تحقيق الغاية وهي الكشف عن مراحل تطوّر علم البلاغة فقد وقع في بعض المشكلات التي أعاقته عن ذلك. فقد قاده الحرص على توزيع البلاغة في أطوارٍ محدّدة إلى عدم تقدير الجهود الفرديّة، فمجموعةٌ من العلماء تجتمع تحت طورٍ ما دون بيان ما بينها من فروق في حجم الإسهام العلمي الذي قدّمه كلّ واحدٍ منهم. كما قاده هذا الطابع التعميمي إلى ذكر جهود وإغفال أخرى. يُضاف إلى ذلك أنَّه كان يركّز على المؤلّفات البلاغيّة لا أفكار البلاغة وقضاياها ممّا جعله أقرب إلى أنْ يكون تاريخًا في المؤلّفات البلاغيّة من أنْ يكون تاريخًا لعلم البلاغة.

● والتبويب بحسب الحدث المركزيّ هو صورةٌ من صور التبويب بحسب التطوّر العلمي، ولكنّها صورةٌ تتّخذ حدثًا من الأحداث نقطة ارتكازٍ تدور حولها بقيّة الأطوار، فيكون لهذه النقطة ما يسبقها وصولًا إليها بوصفه الحدث الأبرز، ولها كذلك ما يتلوها. وقد أراد صاحب هذا التبويب أنْ يكون كتابه مفارقًا لما سبقه من دراسات في نفس المجال، بحيث ينتقل من التأريخ للرجال والمؤلّفات إلى التأريخ لأفكار البلاغة وقضاياها التي شكّلت المنعرجات الحاسمة في تطوّرها. ولكنّ تحقيق ذلك لم يطّرد في جلّ الكتاب، فالحدث المركزي كان الحديث عنه يدور حول مؤلّفات الجاحظ صاحب الحدث، كما كانت بعض فصول الكتاب أيضًا حديثًا عن المؤلّفات أكثر منها حديثًا عن الأفكار أو القضايا. وهذا يعني أنَّ هناك مفارقةً واضحةً بين نمط التبويب الذي اتّخذه الكتاب والغاية التي قصدها. فلم يستجب دائمًا ذلك النمط لهذه الغاية، ولا أدلّ على ذلك من خروج مركز النمط عن هذه الغاية كما أقرّ المؤلّف نفسه بذلك.

● وأمَّا التبويب بحسب الأصول وامتدادات الذي يعتمد في تأريخه على بحث الأصول العلميّة والمعرفيّة التي كوّنت البلاغة العربيّة ثمّ بيان ما انبثق عن هذه الأصول من امتدادات أو مسارات سلكتها تلك البلاغة، فهو وإنْ كان من أشمل المحاولات المعاصرة التي حاولت التأريخ للبلاغة العربيّة من منظورٍ شموليٍّ يصل الأفكار بمنابتها، ويتابع حركة نموّها في بناء عامّ، لكنّه مع كلّ ذلك جاء متشعّبًا مرهقًا للقارئ لا يساعد على بيان الجسور الواصلة بين الأصول والامتدادات. كما لم تكن صياغة العناوين منبئةً بالفحوى دائمًا. وقيّد اختزالُ كلِّ امتدادٍ في مؤلّفٍ أو مؤلَّفين حركةَ الكشف عن تطوّر الامتداد ومسار رحلته في البلاغة العربيّة.

● لا تنفصل كتب تأريخ البلاغة عن التصوّرات العلميّة التي ينطلق منها كلُّ دارس، والقناعات المعرفيّة التي توجّهه في رصد هذا التأريخ. ومن أمثلة ذلك أنّنا في الحين الذي نجد فيه الجاحظ عند دارس حدثًا مركزيًّا تُدار حوله البلاغة العربيّة وله تأثيره في مَنْ بعده، نجده عند دارسين آخرين مجرّد مرحلةٍ من المراحل التي مرّت بها البلاغة العربيّة، بل إنَّ بعض الدارسين يرى أنّ مشروعه البياني خرج عن المسار البلاغيّ[1].

● يمكن القول بأنَّ دراسات تاريخ البلاغة المعاصرة بكلّ أنماطها نجت من تحكّم العامل السياسي في تبويبها، ذلك العامل الذي كان المتحكّم الأكبر في قسمة العصور الأدبيّة في كتب التأريخ الأدبي.

(١) ينظر: د.محمّد العمري، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، ص٢٨٦.

● لا تعني هذه المحاولات التي حاولت التأريخ للبلاغة العربيّة على اختلاف أنماطها أنَّ الباب أُغلق نحو محاولة كتابةٍ أخرى لهذا التاريخ، بل هي تؤكّد أنَّ الباب ما يزال مفتوحًا نحو محاولاتٍ جديدة تنتفع بما أحسنت فيه هذه المحاولات، وتتجنّب ما وقعت فيه من مشكلات. وعلى أيّ محاولةٍ جديدةٍ أنْ تضع في اعتبارها أنّ إقامة تاريخٍ صحيحٍ للبلاغة العربيّة يجب أنْ يستند إلى التأريخ لأفكار البلاغة وقضاياها، وأنْ يكون ذلك هو الأساس الذي يُقام عليه هذا التأريخ، فيغدو استدعاء الكتاب البلاغي أو الشخصيّة البلاغيّة بحسب ما يقتضيه هذا الأساس، حتّى لو أدّى ذلك إلى تكرار ذكر الكتاب البلاغي أو الشخصيّة البلاغيّة في أكثر من موطنٍ من مواطن هذا التأريخ، ما دام ذلك محكومًا بهذا الأساس الذي يستند إلى حركة الأفكار، وتدرُّج القضايا نشأةً واكتمالًا.

المصادر والمراجع

- حسين، د.عبدالقادر، المختصر في تاريخ البلاغة، ط١، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م.
- الخطّابي، أبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم، بيان إعجاز القرآن "ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، حقّقها وعلّق عليها: محمّد خلف الله – د.محمّد زغلول سلام، ط٤، القاهرة، دار المعارف.
- زايد، د.علي عشري، البلاغة العربيّة تاريخها مصادرها مناهجها، د.ط، مكتبة الشباب، ص١٩٨٢.
- صمّود، حمّادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس "مشروع قراءة"، ط٣، بيروت، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ٢٠١٠م.
- ضيف، شوقي، البلاغة تطوّر وتاريخ، ط١٥، القاهرة، دار المعارف، د.ت.
- طبانة، د.بدوي، البيان العربيّ دراسة في تطوّر الفكرة البلاغيّة عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط٧، جدة، دار المنار للنشر والتوزيع – الرياض، دار الرفاعي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- عتيق، د.عبدالعزيز، في تاريخ البلاغة العربيّة، د.ط، بيروت، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، د.ت.
- العمري، د.محمّد، البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها، د.ط، الدار البيضاء – بيروت، أفريقيا الشرق، ١٩٩٩م.

● عيد، رجاء، "عرض ومناقشة كتاب: التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس، مشروع قراءة"، مجلّة فصول، القاهرة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، العدد الأوّل، ١٩٨٤م.
● المبارك، د.مازن، الموجز في تاريخ البلاغة، ط١، دمشق ، دار الفكر، د.ت.